

عنوان البرنامج: تجليات التميز والتمكن في فقه النوازل عند مالكية المغرب
الوحدة الأولى: النوازل الفقهية عند علماء المدرسة المالكية الفاسية: سمات التميز
الدرس الثاني: أهمية فقه النوازل بالنظر إلى مستجدات الواقع
اسم المحاضر: الدكتورة أمينة مزيفة

أهمية فقه النوازل بالنظر إلى مستجدات الواقع

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على المصطفى الأمين وعلى آله وصحبه ومن
والاه إلى يوم الدين

تحدثنا في الدرس السابق عن فقهاءنا وعن نبوغهم في فقه النازلات، وكيف أن ما خلفوه من مؤلفات ومصنفات وموسوعات شاهد على كل ذلك وعلى تفرسهم و حذاقتهم في إيجاد أحكام لوقائعهم ونوازلهم، ولا غرابة في ذلك فالفقيه لم يكن بعيدا عن واقعه ولا منعزلا عن مجتمعه مكتفيا بإصدار فتاوى نظرية، وإيجاد حلول لوقائع فرضية، بل إن الفقيه كان ابن بيئته يعيش مع الناس وبين الناس، يشهد من الحوادث ما يشهدونه، ويقف أمام ما يحمله العصر من مستجدات وتطورات، فكان من السهل عليه التعامل مع النوازل «اليومية والحوادث الطارئة، والقضايا الصادرة من صميم الواقع الفردي والجماعي، والمتفرعة عن شبكة العلاقات والمعاملات الإنسانية في شتى نواحي حياتهم...» ذلك أن معايشة الفقيه لواقعه وتفاعله معه وتعامله مع النوازل على كثرتها وتنوعها تُكسبه ملكةً تُمكنه من إعطاء الفتوى المواتية، وهو ما يُعبّر عنه «بالدّرية»، «فالفتوى صنعةٌ لا يُحسنها كل فقيه فلا بد من الدّربة و التمرّس، ومعرفة نفسيات المستفتين ومراعاة الواقع وأعراف البلد الذي يُفتى فيه»¹، وكذا أحوال الناس، ودراسة ما يحصل في مجتمعهم، وما ترمي إليه مقاصدهم، وأعرافهم مُطلّعا على مكابدهم وصوّر حيلهم في التصرفات، والمعاملات، حتى لا يُصوّر له الظالم بصورة المظلوم وعكسه، والمحقق بصورة الميطل وعكسه، و حتى لا يروج عليه المكر والخداع والاحتيال، ويُصور له الزنديق في صورة الصّديق، والكاذب في صورة الصادق»².

1. مباحث في المذهب المالكي لعمر الجيدي، الطبعة الأولى 1993 ص 130.

2. إعلام الموقعين 204/4.

فيتبين تبعا لما مر أنه لا يكفي توافر شروط الإفتاء في الفقيه لأنه قد «يعسر عليه أن يفتي الناس ويُعرّفهم بأحكام ما ينزل بهم في حياتهم، ذلك أن الفقيه يحيط بالأحكام الشرعية، ثم تعرض عليه جزئيات الواقع، فلا يحسن تطبيق ما يناسب من تلك الأحكام على الجزئية المعروضة أحيانا ... لهذا تقرر أن الفتيا تقتضي تدريبا وحدًا بدوئهما يعجز الفقيه عن النهوض بإفتاء العامة، وهذا يوجب ألا يكون خوض مجال الإفتاء إلا بعد استعداد وبعد اجتياز مرحلة تدريب واكتساب ملكة الإفتاء والتصرف في الزاد الفقهي»³. لذلك هناك فقيه، وفقه نوازي، إذ كل نوازي فقيه، وليس كل فقيه نوازي.

لقد حضى فقه النوازل الفقهية باهتمام بالغ، إذ عليه تتوقف مصالح الناس، وبها «يهتدون في شؤون دينهم وديارهم، من عبادات، ومعاملات، وسلوك وأخلاق، و بها تنتظم أمورهم، وتُصان حقوقهم، وتراعى مصالحهم... فإلى المفتي يفرغ الناس حالما تُحلُّ بهم الملمات، وتحز بهم الأمور، وتداهمهم العضلات، وتكثر بينهم النزاعات وتحدث لهم الخصومات، وتختلط الحقوق، وتتجاذبها المصالح ... ولأهمية الفتوى وجلالة قدرها، تولى الله أمرها بنفسه في مُحكم كتابه، وتولاها رسوله صلى الله عليه وسلم، والصحابة من بعده، والتابعون من بعدهم، ومن خلف من بعدهم من أهل العلم...»⁴. مما يبين أهمية هذا الفن وضرورته المتجددة مما يستدعي الاهتمام وإعادة النظر في المؤلفات النوازلية، والكشف على مناهج الفقهاء المعتمدة فيها لحل العويص من المسائل، خاصة الاقتصادية والمالية والتي يكثر فيها الجدل والاختلاف، وكذا تلك المتعلقة بمشاكل الجاليات في ديار الغربة وغير ذلك كثير.

إن معايشة الفقيه لكل المستجدات، جعلته يفتي في نوازل دقيقة وآنية تمس جوانب مختلفة من حياة أفراد المجتمع، وهذا دليل على حرص الناس على معرفة الحلال والحرام، والوقوف عند حدود الشرع، وعدم التجرؤ عليها، ولعل عناوين كتب النوازل أو عناوين مخطوطات الأسئلة والأجوبة وغيرها التي لازالت حبيسة رفوف المكتبات، تعطي رؤية واضحة عن الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية التي كان المجتمع يعيشها. كما يعطي صورة عن تمكُّن الفقهاء في إيجاد أحكام لكل المستجدات الطارئة ولما لا ما حتى استشراف أحكام لنوازل مستقبلية.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

3. فتاوي الإمام الشاطبي ص 76.

4. مباحث في المذهب المالكي، لعمر الجيدي، ص: 125.

المصادر والمراجع:

- مباحث في المذهب المالكي لعمر الجيادي، الطبعة الأولى 1993 .
- إعلام الموقعين للإمام ابن القيم الجوزية.
- فتاوي الإمام الشاطبي.
- مباحث في المذهب المالكي، لعمر الجيادي.